مقدمة

الحمد لله رب العالمين؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ وبعد...

فالبيان؛ هو ما يبين به الشيء ويتضح؛ يقال بان الشيء بينا وتبيانا: اتضح فهو بيّن ومنه قوله ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة النور – الآية ٣٤] بالكسر والتشديد، وكذلك: أبان الشيء فهو مبين كما قال الشاعر:

لو دب ذر فوق ضاحي جلدها لأبان من آثارهن حدور

وتبين الشيء: ظهر. والتبيين: الإيضاح. والتبين ـ أيضاً ـ الوضوح ويقال: بان الحق يبين؛ فهو بائن[1].

والبيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ. وقد روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة»[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [سورة الرحمن – الآيات ١: ٤]، قيل إنه عنى به النبي ﷺ أي علمه القرآن الذي فيه بيان كل شيء. وقيل إنه عنى بالإنسان – هنا – آدم – عليه السلام. قال ابن منظور: ويجوز في اللغة أن يكون الإنسان اسما لجنس الناس جميعا، ويكون – على هذا – علمه البيان؛ أي جعله مميزا له حتى انفصل الإنسان ببيانه وتميزه من جميع الحيوان. وهذا أقرب ما يكون لفهم الآية الكريمة، وأن البيان فيها منّة عظيمة تفضل الله بها على الإنسان تكرما منه على سائر المخلوقات، ويكون معنى البيان – وكما يقول الجاحظ –: «اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغتَ الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[3].

(١) انظر: لسان العرب، مادة(ب ى ن)

(٢) حديث صحيح البخاري ٥٧٦٧.

(٣) البيان والتبيين ٧٦/١

وكأن الجاحظ – بذلك – يجعل وسائل البيان متعددة؛ من لفظ وإشارة وخط وعقد[1] ونصبة؛ وهى الحالة الدالّة التى تقوم مقام تلك الأصناف. والقرآن كله فى نهاية حسن البيان.

هذا هو البيان بمعناه العام. وأما البيان البلاغى فهو علم من علوم البلاغة الثلاثة: المعانى والبيان والبديع، وهذا البيان هو لبيان المعنى بالصورة الفنية كالاستعارة وغيرها من موضوعات علم البيان البلاغى.

وأردت بعنوان الإعجاز التشريعى والبيانى لسورة النساء؛ البيان بمعناه العام أى بمعنى الكشف عن معانى السورة بكل ما تحمله من دلالات كدلالة اللفظ ودلالة التركيب ودلالة السورة والأحكام الفقهية وغير ذلك مما تناولته السورة من موضوعات مهمة تنظم شئون المجتمع وترسم العلاقة الصحيحة بين الإنسان وربه ثم بين الإنسان وأخيه الإنسان.

سورة النساء:

سورة النساء الرابعة فى المصحف، والثالثة فى مصحف أُبَىّ بعد الحمد والبقرة، والثانية فى مصحف عبد الله بن مسعود بعد البقرة، وإحدى السبع الطوال[2].

وقد ارتبطت بما قبلها وما بعدها بروابط قوية:

فمن ارتباطها بالفاتحة تفسير: ﴿ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ۝٧﴾ [سورة الفاتحة – الآية ٧]، بقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ ۝٦٩﴾ [سورة النساء – الآية ٦٩].

ووجه ارتباطها بالبقرة أنه أجمل فى البقرة قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم وَٱلَّذِينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [سورة البقرة – الآية ٢١]، وزاد فى النساء قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۝١﴾ [سورة النساء – الآية ١].

ولما كانت آية التقوى فى سورة البقرة غاية، جعلها فى أول هذه السورة مبتدأ لها، وأجمل فى سورة البقرة: ﴿ٱسكُن أَنتَ وَزَوجُكَ ٱلجَنَّةَ ۝٣٥﴾ [سورة البقرة – الآية ٣٥]، وبيّن فى سورة النساء أن زوجته خلقت منه، فى قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنهَا زَوجَهَا ۝١﴾ [سورة النساء – الآية ١].

---

(١) العقد: هو ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين؛ يقال له حساب اليد.

(٢) السبع الطوال: من البقرة إلى براءة. الإتقان ١/ ٨٤.

وأجمل فى سورة البقرة آية اليتامى، وآية الوصية، والميراث والوارث فى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴿٢٣٣﴾﴾ [سورة البقرة - الآية ٢٣٣]، وفصّل ذلك فى هذه السورة أبلغ تفصيل.

وأجمل فى البقرة من الأنكحة ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ ﴿٢٢١﴾﴾ [سورة البقرة - الآية ٢٢١] وفصّله فى سورة النساء بشروطه.

وذكر الصداق فى البقرة مجملاً فى قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا ﴿٢٢٩﴾﴾ [سورة البقرة - الآية ٢٢٩] وشرحه فى سورة النساء مفصلاً.

وذكر فى سورة البقرة الخُلْع[1]، وذكر فى سورة النساء أسبابه ودواعيه؛ من النشوز وما يترتب عليه، وبعث الحكمين.

وأما ارتباطها بسورة آل عمران: أن الأخيرة ختمت بالأمر بالتقوى وافتتحت هذه السورة به، وهذا - كما يقول السيوطى[2] - من آكد وجوه المناسبات فى تركيب السُّوَر، وهو نوع من البديع يسمى تشابه الأطراف كما سوف نتناوله - إن شاء الله - بالبيان.

وقد ذكر فى آل عمران قصة أُحد مستوفاة، وذكر فى هذه السورة ذيلها فى قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٨٨].

وذكر فى آل عمران الغزوة التى بعد أُحد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة آل عمران - الآية ١٧٢]، وأشير إليها فى سورة النساء بقوله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٠٤].

وذكر فى آل عمران قصة خلق عيسى - عليه السلام - بلا أب إذ أقيمت له الحجة بآدم. وفى ذلك تبرئة لأُمّه، خلافاً لما زعم اليهود - عليهم اللعائن - وتقريرٌ لعبوديته، خلافا لما ادّعته النصارى، وقد ذكر فى سورة النساء الرد على الفريقين معا؛ فرد على اليهود بقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٥٦]، وعلى النصارى بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴿١٧١﴾﴾

---

(١) خَلَعَ الرجلُ امرأته خلعًا: طلقها بفدية من مالها، وخالعت زوجها: طلبت أن يطلقها بفدية من مالها، وتخالع الزوجان اتفقا على الطلاق بفدية ١/ ٢٥٠ - المعجم الوسيط.

(٢) أسرار ترتيب القرآن بتحقيق عبد القادر أحمد عطا.

[سورة النساء – الآية ١٧١] إلى قوله: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ١٧٢] وذُكر فى آل عمران: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران – الآية ٥٥]، ورد فى سورة النساء على من زعم قتله بقوله: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [سورة النساء – الآيات ١٥٧ : ١٥٨].

وأما ارتباطها بالمائدة ففى أنها فصلت أحكام السُّرَّاق وقطّاع الطريق فى قوله: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة المائدة – الآية ٣٣]. لتعلقهم بالذهب والفضة الواقعَين فى آية آل عمران ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران – الآية ١٤]. ووقع فى سورة النساء إشارة إلى ذلك فى قسمة المواريث[1].

وترتيب آيات سورة النساء توقيفى، كما هو الشأن فى آيات القرآن كله، وقد ثبت ذلك بالسنة المطهرة؛ فقد رُوى عن ابن عباس أنه قال: «قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى، وإلى براءة وهى المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموهما فى السبع الطوال؟

فقال عثمان: كان رسول الله – ﷺ – تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول: «ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا[2].

وآيات سورة النساء فى المصحف ٧٦ ومائة آية بينما ذكر الخازن أنها خمس وسبعون ومائة آية، وخمس وأربعون وثلاثة آلاف كلمة وثلاثون وست عشرة ألف حرف[3].

وقد اتبعت فى هذه الدراسة عدة مناهج بحسب الموضوع الذى أتعرض له فى هذه السورة الكريمة؛ فالمنهج التحليلى لتحليل الآية الكريمة وبيان الموضوع الذى تتناوله، وإلقاء الضوء عليه، والمنهج التاريخى لمعالجة ما جاء فى هذه السورة من موضوعات تتناسب وطبيعة

(١) انظر فى ذلك كله: أسرار ترتيب القرآن للسيوطى، ص٩٠.

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي، ص ٨.

(٣) لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن (تفسير سورة النساء).

المنهج، والمنهج الفنى فى دراســة الموضوعات الفنيــة كالموضوعات البلاغية وغير ذلك من الموضوعات التى اقتضتها طبيعة الدراسة.

وما أردت بعملى هذا إلا التقرب إلى رب الأرض والسموات علّه – سبحانه – أن يغفر لى ولوالدى الخطايا والزلات وأن ينفع به المسلمين فى شتى بقاع المعمورة والله من وراء القصد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دكتور/ أحمد عبد الوارث مرسى

obeikandl.com